الإعجاز فينا ومن حولنا

كون فسيح نعيش فى ركن ضئيل من أركانه... لا تقدير لمدى اتساعه ... نهايته فى نظر الفكر الإنسانى وإدراكه لا حدود لها ... معلوماتنا عنه كما فى منتهى الضآلة ونوعاً هى أقرب للتخمين منها لليقين ، معظم ما نعرفه عن هذا الكون يقع على أرضنا ... التى من ترابها خلقنا ، وعليها نشأنا وترعرعنا وفى أرضها تنتهى حياتنا الدنيوية حيث تتحلل أجسادنا وتعود إلى تراب الأرض. عن الأرض وما يعيش بداخلها وعليها تجمعت الكثير من معارفنا ... أدركتها أحاسيسنا ووضحتها أبحاثنا وسجلتها أقلامنا وتفهمتها عقولنا ، إلا أنه لا زال الكثير مما حولنا يشوبه الغموض ولا نجد لتساؤلاتنا عنها تعليلاً وتفسيراً ، لهذا فإن الدراسات والأبحاث لا تزال مستمرة فى محاولات لفك طلاسم الحياة ووظائفها فى آلاف المخلوقات الحية. أكثر ما درس وشخص وعلل يقع فينا نحن بنى الإنسان ؛ قمة المخلوقات على هذه الأرض.

(وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون) الذاريات 20 و 21.

لن نتحدث فى مجالنا هذا عن نواحى الإعجاز فينا ، ولكن سيكون محور حديث هذا الكتاب عن الإعجاز فيما حولنا ، وسيكون ذلك فى حدود العالم المحدود الذى نعيش فيه ؛ عالم الكرة الأرضية. ومما حولنا على هذه الأرض سنختص فى الحديث عن أحياء الأرض دون الجمادات ، سنختار بعضاً منها تتميز بصفات وطبائع غريبة أو عجيبة ، شذت فيها عن غيرها من الأحياء.

﴿ وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾ الأنعام 38

لن يمس حديث الإعجاز بين أحياء الأرض ، بعيداً عن الإنسان ، إلا أعداداً قليلة من الأحياء ، إعتبره البعض من عجائب مخلوقات الله ، لما فى حياتها من إختلاف وشذوذ عن أنماط الحياة الطبيعية فى الأوساط المماثلة ، أو من طرق

فريدة تسلكها فى التلاقى والتزاوج والحضانة للعمل على حفظ أنواعها ، أو من وسائل للحركة سيراً على اليابسة او سباحة فى الماء أو طيراناً فى الجو ، أو من تصرفات تدل على ذكاء وتحدث من أحياء خالية من الذكاء ، أو غير ذلك من سلوكيات قد تتعلق بطرق الحصول على الغذاء أو بطرق التفاهم بين أفرادها وغير ذلك ... تصرفات تتم على وجود قوة خارقة لهذا الكون ... تقدر وتدبر ... تخطط وتنظم ... تسيطر وتحرك ... فإذا التدبير دقيق محكم ... وإذا التنظيم متقن يصل إلى درجة الكمال .. وإذا كل كائن مسير لغاية لم يخططها لنفسه ، وإنما سير إليها بقوة يسميها البعض بالغريزة instinct تحدد مساره فى الحياة وتجعل حياته ميسرة لما خلقت لها ... وإذا بنا عاجزين عن تفسير تلك التصرفات وتلك الحركات إلا بالاعتراف الكامل بأنها من تدبير الخالق الذى خلق كل شىء فأحسن خلقه ، وبأن كل حياة مهما ضألت فهى آية من آياته ودليل على إعجاز من ملايين إعجازاته ، أنظر إلى قول الحق جل شأنه.

﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب﴾ الحج 73.

هل تمكن العلماء من إحصاء ما فى الأرض وما عليها من أحياء؟ كلا ، لكونها أعداداً هائلة ، لا يمكن حصرها وتقديرها ، فأعداد أفراد الإنسان الذين يعيشون على ظهر الأرض تزيد عن ستة آلاف مليون شخص ، والإنسان هو نوع واحد من أحياء الأرض ويعيش معه حالياً حوالى مليونين من الأنواع الأخرى ، والإنسان نوع من الأحياء ضمن حوالى مائة مليون نوع معظمها عاش خلال فترة من الفترات الجيولوجية من عمر الأرض ثم إندثر خلال عصور جيولوجية سابقة والبعض لازال معمراً لهذه الأرض ، وجميع ما فى الأرض وما عليها من أحياء يعتبر من إعجازات المولى جل وعلا.

الأحياء المعمرون للأرض حالياً منها النباتات ومنها الحيوانات ومنها كائنات دقيقة يصعب تمييزها إلى نباتات أو حيوانات. تقدر أعداد النباتات بحوالى 400 ألف نوع ، وتقدر باقى الأحياء بما يزيد عن مليوناً ونصف من الأنواع. تتميز أفراد كل من الكائنات الحية بصفات مشتركة قد تكون شكلية وقد تكون تشريحية وقد تكون وظائفية تميز النوع عن غيره من الأنواع.

تختلف البيئات الملائمة لكل نوع من الأحياء ، فالبعض يفضل الأجواء الباردة والبعض يعيش فى المناطق الحارة. البعض يعيش فى السهول والآخر يفضل المناطق الجبلية. أنواع تأقلمت للحياة على الأراضى اليابسة والأخرى تأقلمت للحياة المائية. الأنواع المائية بعضها يعيش فى المياه العذبة والآخر يعيش فى المياه المالحة. وبالنسبة لسكان البحار والمحيطات ، البعض يتحمل ضغوطاً مرتفعة ويعيش فى الأعماق المظلمة للبحار والمحيطات ، والبعض يعيش قريباً من سطح الماء.

تختلف الأحياء فى أشكالها وتركيباتها ووظائفها ومتطلباتها البيئية ، إلا أن الجميع ، عدا حالات نادرة تجمعهم صفة واحدة مشتركة هى تميزهم جنسياً إلى ذكور وإناث ، البعض يجمع بين الذكورة والأنوثة فى نفس الكائن الحى كما فى معظم أنواع النباتات ، وبعض الكائنات الدقيقة لا تعرف الجنس وتتكاثر بإنقسام بسيط.

حديثنا فى هذا الكتاب سيتضمن بعض الأحياء الحيوانية والنباتية الراقية التى تميزت بصفات عجيبة تختلف عن صفات أقربائها من الأحياء ، أما حديث الأحياء الدقيقة فقد شمله كتابين آخرين للمؤلف وهما "عالم خفى" و" الميكروبات والنباتات". الصفات الغريبة العجيبة للأحياء ، موضوع هذا الكتاب ، هى صفات تشذ عن المألوف كأن تكون فى صورة أرقام قياسية فى الطيران أو السباحة أو الحجم ، أو أن تكون صفات وظيفية ، كأن تكون النباتات مفترسة تتغذى على أكل حيوانات على غير الطبيعة المعتادة للنباتات ، أو أن تكون

الحيوانات خضراء تحتوى خلاياها على صبغة الكلوروفيل وبذلك فإن تغذيتها تعتمد على الاستفادة من ضوء الشمس ، أى أنها تتغذى تغذية نباتية ، أو أن يكون النوع كل أفراده إناث ولودة دون وجود لأفراد ذكور فى العشيرة ، أو أن يكون الذكور هم المسئولون عن حضانة الصغار ، إلى غير ذلك من الصفات غير المألوفة.

obeikandl.com